الأهرام

المصدر: الخليج

التاريخ: ٦ مارس ٢٠٠٣

هل من الممكن تجنب الحرب؟

محمد سيد أحمد

لقد أبرز خيار الحرب أن الصراعات الدولية مازالت شديدة الاحتدام.. وربما وجد ذلك تعبيره الأوضح في تمسك الدول الكبرى باللجوء إلى الفيتو

هناك من يقولون إن الحرب واقعة، لا محالة.. فهل يجدي أي جهد يبذل لمقاومة الحرب، ومحاولة تفاديها؟ أليس من الأفيد مجاراة أمريكا في مسعاها، وجني ثمار هذه المجاراة، بدلا من تبذير طاقاتنا في جهد لن يعود إلينا بنفع؟ هذا سؤال كان مركزيا في القمة العربية التي عقدت يوم السبت الماضي في شرم الشيخ.

فما من شك في أن إدارة بوش مصممة على خوض حرب ضد العراق.. ولا يبدو مشكوكا فيه أن الأسباب الحقيقية للحرب ليست أسبابها المعلنة.. ليست القضية قضية أسلحة دمار شامل.. بدليل أن «إسرائيل» تملك ترسانة من هذه الأسلحة.. وليس امتلاكها لها سببا في إثارة ضجة عالمية، كما هو الحال بالنسبة إلى العراق.. ان هناك دولا مرخصا لها أن تكون نووية وأخرى منسوبة إلى «محور شر» ليس مرخصا لها بذلك!

فمنذ سقوط حائط برلين في نوفمبر/تشرين الثاني 1989، سقط النظام العالمي الثنائي القطبية.. وسقط بالتالي ما وصف بـ «معادلة الرعب النووية»، وعملية «تحييد متبادل» بين الدولتين العظميين.. صحيح أن أمريكا كانت متفوقة عسكريا على الاتحاد السوفييتي.. وإذا صح أن السوفييت كانوا قادرين على محو أمريكا من الوجود عشرين مرة، كانت أمريكا تملك القدرة على محو أرض السوفييت من الوجود ثلاثين مرة! غير أن عدم التكافؤ هنا هو تكافؤ. لأن البشر لا يموتون سوى مرة واحدة!

ومع زوال النظام العالمي الثنائي القطبية، حل محله نظام عالمي أحادي القطبية تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية.. وأصبح لهذه الأخيرة تفوق عسكري وتكنولوجي واقتصادي على كافة الدول الأخرى، بصورة لم يشهد لها التاريخ مثيلا.. لم يعد هناك «تحييد متبادل» بل إغراء ألا تلتزم واشنطن بالمبدأ الذي رُوّج له عقب سقوط النظام العالمي الثنائي القطبية مباشرة، القائل إن كل النزاعات من الممكن بل ومن الواجب تسويتها بالطرق السلمية.. أصبح متاحا لأمريكا أن تعود إلى شن حروب.. وهذه المقولة يجري الآن اختبارها بالحرب التي قرر بوش خوضها ضد العراق.

غير أن النظام الأحادي القطبية لا مفر من أن تواجهه تحديات.. ربما لم تعد اللعبة ثنائية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي بالذات.. وإنما هناك من يتطلع إلى أن يكون البديل عن القطبية الثنائية هو قطبية متعددة، وليس قطبية واحدة.. وربما برزت إرهاصات أولى لقطبية متعددة من قبل عدد من الدول الأوروبية، على رأسها فرنسا وألمانيا وبلجيكا.. إن الخلاف الراهن حول قضية الحرب والسلام.. حول هل تحلّ القضية العراقية بطريق الحرب أم بطريق التسوية السلمية؟ هو خلاف حول هل تكون لواشنطن منفردة الكلمة الأخيرة، أم تكون الكلمة الأخيرة نتاج «حل وسط» بين مواقف أطراف متعددة؟ بعبارة أخرى، هل يحكم القرارات المصيرية عالم أحادي القطبية أم عالم متعدد الأقطاب؟ وهذه قضية ليست مقصورة على القضية العراقية وحدها.. بل بصدد أن تصبح عالمية.

السيطرة على بترول العالم

بل لا تكتفي أمريكا بمجرد أن تنفرد بتفوقها العسكري والتكنولوجي والاقتصادي، إنما تحرص على الاحتفاظ بهذا الموقع المتميز، وأن تكفل لنفسها السيطرة الدائمة على مصادر الطاقة في العالم.. ولما كان البترول هو مصدر الطاقة الأكثر بروزا (ما لم يكتشف مصدر طاقة بديل أكثر كفاءة وأرخص سعرا وليس هذا منتظرا لنصف قرن على الأقل)، فمعنى ذلك أن العراق سوف يظل مستهدفا، ذلك أنه يحتل الموقع الثاني عالميا بعد السعودية في ما يملكه من مستودعات بترول قابلة للاستهلاك.

صحيح أن حربا ضد العراق ليست ضرورة كي تظهر أمريكا تفوقها.. تماما كما أن العراق لا

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

ينفرد بامتلاك أسلحة الدمار الشامل (ذلك مع افتراض استمرار امتلاكه لبعضها).. ومن هنا، فلا إلزام بالحرب، ولا مجال للقول إن أمريكا لا تملك التخلي عنها في أي ظرف من الظروف.. ولكن من الواضح أن حربا ضد العراق قد تعود إليها بعوائد كبيرة.. ومن هنا الإغراء.. والتصميم على خيار الحرب بصورة لا تبررها الأسباب المعلنة لإشعال حرب.. تلك قضية تجعل حوارا عقلانيا حول هذه الأسباب المعلنة قليلة الجدوى.

وماذا عن الإرهاب؟

ثم هناك الحجة الأمريكية أن الحرب ضرورة لمنع دول «محور الشر» (منها العراق) من تزويد شبكات الإرهاب (في مقدمتها، منظمة «القاعدة») من الحصول على أسلحة الدمار الشامل.. والحقيقة أن هذه الحجة كان من المتصور التذرع بها لو كان العراق الدولة الوحيدة الوارد اتهامها بامتلاك أسلحة محظورة.. ولكن ليس هذا هو الحال.. فقد أعلنت كوريا الشمالية أنها تملك مثل هذه الأسلحة ولا تتحدث أمريكا عن حرب ضدها.. وقد أقدمت الهند وباكستان فعلا على تفجيرات نووية.. ثم لم يثبت أن العراق على صلة بمنظمة «القاعدة».. ثم هناك قبل هذا كله ترسانة «إسرائيل» غير المعلنة من الأسلحة النووية ولا يتعرض لها أحد على وجه الإطلاق.. فلماذا اللجوء إلى الحرب في حالة العراق.. تحديدا؟

عدم التخلي عن الفيتو

لقد أبرز خيار الحرب أن الصراعات الدولية مازالت شديدة الاحتدام.. وربما وجد ذلك تعبيره الأوضح في تمسك الدول الكبرى باللجوء إلى الفيتو.. كان قد أشيع، عندما كثر الحديث عن إمكان حل كل النزاعات بالطرق السلمية، أن الصراعات الحادة التي اقتضت في ظل النظام الثنائي القطبية اللجوء إلى الفيتو لم تعد قائمة.. ومن هنا الافتراض أن القرارات في ظل «العولمة» من الممكن التوصل إليها بالتوافق، ولا حاجة بالتالي إلى الفيتو.. ولكن ها هي روسيا وقد هددت صراحة بإمكانية اللجوء إليه منعا لنشوب حرب.. وكذلك هددت فرنسا بشيء مماثل.. وقد سبق أن لجأت أمريكا إلى الفيتو حول خلاف تعلق بالقضية الفلسطينية.

لم يعد العالم ثنائي القطبية.. هل أصبح، بديلا عنه، أحادي القطبية أم هو بصدد أن يصبح متعدد الأقطاب؟.. هذا هو مربط الفرس.. هل التحالفات والمواجهات بصدد أن تكتسب ملامح جديدة؟ هل الاتحاد الأوروبي، بدلا من أن يكون قطبا واحدا، بصدد أن يتحول إلى ساحة صراع، مع انقسام دوله إلى فريق التحق بالقطب الأمريكي، وآخر يناهض مسعى أمريكا إلى الهيمنة المنفردة؟ هل هذا هو الذي يقف وراء تصميم واشنطن على خوض حرب ضد صدام حسين بينما تتمسك مجموعة أخرى من الدول الأوروبية بمقاومة هذه الحرب؟

حالة سيولة

ليس معنى ذلك أن التحالفات والمواجهات بين الولايات المتحدة من جانب، وهذه المجموعة أو تلك من الدول الأوروبية من الجانب الآخر، هي تحالفات أو مواجهات تتسم بالثبات والدوام، بل هي في حالة سيولة مستمرة.. قد تكون صورتها الآن فرنسا وألمانيا وبلجيكا في فريق الدول المعارضة للسياسة الأمريكية، في وقت تكون فيه بريطانيا واسبانيا وايطاليا في فريق الدول المناصرة لها.. وقد يتغير هذا التصنيف غدا.. لم نعد بصدد مواجهات وتحالفات دائمة، كما كان الحال في ظل الحرب الباردة.

وما ينسحب على الاتحاد الأوروبي ينسحب لدرجة أو أخرى على مجموعة الدول العربية (أو الإسلامية، لو ضممنا إليها تركيا).. هناك دول ترابط على أرضها قوات أمريكية وبريطانية، وواردة أن تتقرر لها وظيفة لو اندلعت الحرب.. وهناك دول تجاهر بمعاداتها للحرب، مع تحاشي معاداة أمريكا فوق حد معين.. أصبحت السمة المميزة تباين المواقف حتى داخل المجموعة الواحدة.. فهل من شأن ذلك تيسير عملية تجنب الحرب، أم إيجاد ظروف أكثر مواتاة لاشتعالها؟

هل حملت القمة العربية إجابة، ولو ضمنية، عن هذا السؤال؟ لم تعد أية دولة أو كتلة دول متطابقة على طول الخط، لا تبدي تحفظات أو اختلافات في الرؤية من وجهة نظر واشنطن حيال الحرب، ومع ذلك فليس هناك أيضا طرف يتطابق موقفه مع الموقف العراقي.. وكما ثبت من أزمة الصواريخ «الصمود - 2»، وإعلان العراق استعداده لتفكيك

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

هذه الصواريخ، التي كلفت العراق ملياري دولار، والتي نشأ بشأنها خلاف حول المسافة المرخص للصواريخ عبورها، فكلما أقدم العراق على خطوات جادة في اتجاه نزع أسلحته المحظورة، أوجد لنفسه فرصا أفضل لنصرة المعارضين لشن حرب، وعزّز مركزهم.

غير أن القمة لم تكن «طارئة» أو «عاجلة» بقدر ما كانت «انتقالية»، خففت نوعا من وطأة الخلافات، مع استمرار الحساسيات، وربما بلوغها حدا بعيدا.. كانت هناك مبادرة دولة الإمارات التي دعت الرئيس العراقي إلى قبول وصاية الجامعة العربية.. ذلك دون إشارة صريحة في البيان الختامي إلى مصير صدام حسين.. وكان هناك، في وجه الإدارة الأمريكية، موقف قاطع في رفض الحرب، على الأقل حسب ما نص عليه البيان الختامي.

فإذا نجحت واشنطن في شن الحرب، سواء بقرار يؤيده مجلس الأمن، أو بتحرك منفرد لا يسنده قرار من المجلس، فسوف يكون ذلك تعبيرا عن أن العالم مازال خاضعا لنظام أحادي القطبية، ولهيمنة واشنطن دون منازع على مقدرات كوكبنا.. أما إذا أسفرت المعركة عن تجنب نشوب حرب، فسوف يحمل ذلك معنى أن القطبية المتعددة بوسعها أن تنتصر، وأن كلمة الشعوب كفيلة بتحقيق نتائج.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية